مشاركة الأدب الانجليزى
فى الدراسات العربية

نقلا عن « برنارد لويس »(*)
للأستاذ عبد الوهاب الأمين

١ — العصور الوسطى

كان رأى الباحثين مجمعاً منذ مدة على أن أولى الاتصالات الثقافية المهمة بين الإسلام والفرنك كانت نتيجة للحروب الصليبية . وفى الحق أن الحروب الصليبية هى الفرصة الأولى التى اجتمع فيها الشرق العربى بالغرب المسيحى اجتماعاً قريباً ، وحصلت من جراء ذلك مبادلات ثقافية ؛ غير أن الدراسات التاريخية المتأخرة أبانت أن هذه المبادلات كانت محدودة من ناحيتى المجال والمفعول ؛ وهو أمر يجب أن يكون منتظراً بسبب سيطرة الناحية العسكرية في ذلك الدور . ولقد وصل الفكر العربى عن طريق آخر إلى الغرب بصورة عامة ، وإلى انجلترا بصورة خاصة

لقد دخل العرب المنتصرون إلى أوربا بعد غزوهم شمال أفريقية ، واستمروا منطقتين فى حوض البحر الأبيض المتوسط لمدة طويلة هما : اسبانيا وصقلية ، وأنشأوا لهم مدنية بالغة فى التقدم ما لم يكن يوازيه أى تقدم آخر فى الأراضى المسيحية فى ذلك الحين . ذلك التقدم الذى لم يعجز عن التأثير على معاصريهم من المسيحيين ، حتى أنه بعد أن استعاد المسيحيون تلك البلاد ظلت التعاليم العربية مزدهرة مدة طويلة . وكان الملوك المسيحيون يتكلمون العربية ، ويؤازرون العلماء العرب ، وبقيت الثقافة العربية العالية نافذة فى بلاد الفرنك ، وأصبح المسيحيون الذين يتكلمون العربية فى أسبانيا واسطة مهمة لبسط ذلك النفوذ ، كما أن اليهود الذين ينطقون بالعربية فى أسبانيا وصقلية — والذين كانت لهم لغة عامة هى العبرية — مع مشاركيهم فى الدين من الفرنك ، كانت لهم يد طولى فى نشر الثقافة العربية فى الغرب .

وينبغى أن نشير فى هذا المقام بصفة خاصة إلى الفيلسوف الأسبانى اليهودى « ابراهام بن عزرا » من مدينة طليطلة الذى زار لندن فى سنتى ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، واشتغل بالتعليم هناك مدة ؛ كما أن الإنجليزى « توماس براون » ولى القضاء فى صقلية ، ويذكره العرب فى كتاباتهم باسم « القائد برون »

وفي القرن الثانى عشر أخذ العلماء يفدون من الشمال ، وعلى الأخص من انجلترا ، لزيارة الجامعات العربية فى أسبانيا فى سبيل تحصيل العلم ، وكان أول كبير من هؤلاء هو الإنجليزى «أديلارد» من مدينة (باث) أحد رواد الثقافة العربية فى الغرب

وقد ساح « أديلارد » فى الربع الأول من القرن الثانى عشر فى إسبانيا وسورية ودرس اللغة والعلوم العربية ، وترجم كثيراً من الكتب العربية إلى اللاتينية لفائدة معاصريه من المسيحيين ، واشتغل فى عودته ترجماناً للملك هنرى الثانى — ولم يصر بعد ملكاً — وكان قد أهدى إليه أحد كتبه أيضاً . ويتألف أهم كتبه وهو « القضايا الطبيعية » من حوار بينه وبين قريب له درس فى الجامعات الفرنكية بينما درس « أديلارد » بين العرب . وعلى ذلك فإن الجدل الذى يقوم بين الاثنين يتطرق إلى المقابلة بين الدراستين ، وقد قال فى مقدمة كتابه هذا : « إنى سأدافع عن قضية العرب ، لا عن قضيتى » وشدد فى نهاية كتابه على تفوق الطريقة العربية كما ساعد بنفوذه على نشرها فى الغرب ، فترجم عدداً من الكتب العربية فى علم الهيئة والرياضيات وبذلك مد فى نشر هذه العلوم في أوربا .

وقد اقتفى أثر « أديلارد » كثيرون من الإنجليز . فقد درس « روبرت » — وهو من أهالى جستر — فى القرن الثانى عشر أيضاً ، الرياضيات وترجم الكتب العربية . وهناك شخصية طريفة هى شخصية « دانيل مورلى » الذى يحدثنا عن نفسه أنه كان يَرِماً بالجامعات الفرنكية فذهب إلى إسبانيا « فى طلب أحكم الفلاسفة على وجه الأرض » على حد تعبيره ، وقد عاد إلى انجلترا بمجموعة كبيرة من الكتب التى لقيت جمهرة كبيرة من القراء . « وميخائيل سكوت » الذى درس

(*) هو محاضر فى التاريخ الاسلامى فى فرع الدراسات الاسلامية والافريقية فى جامعة لندن . وقد ألقى هذا البحث بشكل أحاديث فى الاذاعة البريطانية

— في القرن الثالث عشر — في صقلية وأتقن اللغتين العربية والعبرية، وترجم كتب أرسطاليس من اللغة العربية، وكان كثير منها قد تلقاه الغرب لأول مرة ، كما أنه ترجم التعقيبات العربية على فلسفة أرسطاليس، وألف عدة كتب في علم التنجيم والكيمياء

ولقد كان عمل هؤلاء وغيرهم من الإنجليز المغامرين الذين زاروا بلاد العرب كبير الفائدة من الناحية الثقافية ، فبفضل أعمالهم ذاعت آثار العرب الفلسفية والعلمية العظيمة في انجلترا والغرب ، وتقدمت الثقافة الأوربية خطوة كبيرة إلى الأمام . وكان التأثير الذي تركته كتبهم المترجمة والموضوعة عظيما . وفي وسعنا أن نضع الفيلسوف الإنجليزي العظيم « روجر باكون » في عداد الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالثقافة العربية ، وكذلك الشاعران « شوصر » و « ليدجيت » . ومن المهم ذكره في هذا المجال أن أول كتاب طبع في انجلترا وهو كتاب « أمالي وأقوال الفلاسفة » (سنة ١٤٧٧) وقد وضع على أساس كتاب عربي هو كتاب : « مختار الحكم ومحاسن الكلم » الذي صنفه في سنة ١٠٥٣ الأمير المصري « مبشر بن فاتك » ، ولم يطبع النص العربي ، ولكن هناك نسخة خطية منه لا تزال موجودة في هولاندة ، وهو مجموعة أمثال وأقوال حكمية ، وكان كثير الشيوع مدة من الزمن في الشرق وقد ترجم إلى عدة لغات أوربية

إن الدَّين الذي تدين به أوربا في العصور الوسطى لمعاصريها من العرب ومترجميهم لهو دَين مضاعف ، ففي الدرجة الأولى كان العرب هم الذين نشروا القسم الأكبر من ميراث الفكر والعلم الإغريقي الذي كان الغرب قد أضاعه ، واحتفظ به العرب وأذاعوه؛ وفي الدرجة الثانية أن أوربا قد تعلمت من العرب طريقة جديدة في الدراسة ، تلك الطريقة التي وضعت العقل فوق السلطة ، ودافعت عن البحث العلمي الحر ، وقد كان هذان الدرسان هما اللذين لعبا أكبر دور في إعطاء نهاية للعصور الوسطى ، وبعث النهضة « الرينسانس » وولادة أوربا الجديدة ، كما أن العلماء الإنجليز ساهموا بدور كبير في نقل هذه الدروس . وإن من مآسي التاريخ الآن أن العرب ينسون في هذا الوقت الأشياء التي علموها هم لأوربا ، وأن يقوموا بدراستها مرة أخرى بعد مضي

هنة جصور

ونود أن نختم هذا الفصل بالرجوع إلى أقوال « إديلارد » نفسه في حديثه مع قريبه عن الطريقة التي تعلمها في أسبانيا ؛ ورأيه هذا قد سجل منذ ثمانمائة سنة :

« إنني ، والعقل دليلي ، قد تعلمت أمراً واحداً من أساتذتي العرب . أما أنت فعلى خلاف ذلك قد تلجمت بلجام من المظهر الخارجي للسلطة — وبماذا نصف السلطة إلا بأنها لجام ؟ — على شاكلة الحيوانات المتوحشة ، فإنها تساق إلى حيث يشاء المرء بدون أن ترى لماذا وإلى أين تساق ، بل تتبع المِقْودَ الذي توقف به ، وكذلك الكثير منكم قد رُبطوا بقيود وسلاسل من التسليم المنحط ، وسيقوا إلى الخطر بسطوة الكتاب ... لقد منح العقل للأفراد لكي يكون هو الحكم الرئيسي للتفريق بين الحق والباطل ... فيجب أن نسعى بداءة ذي بدء إلى البحث عن العقل ، فمتى وجد قُبلت حينئذ السلطة إذا أريد إضافتها إليه ، فإن السلطة في حد ذاتها لا يمكن أن توحي بالثقة إلى الحكيم ، ولا ينبغي لها أن تستعمل لهذه الغاية »

والذين يعرفون كتابات العرب سيؤيدون رأي «إديلارد» هذا على الفور ، أما الذين يعرفون علم الغرب فسيدركون مغزاه حالاً

عبد الوهاب الأمين

اليـــوم

سجل تجاري ٢٩٧٣